مظاهر التأثير الصوتي والدلالي للسجع في الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء (ع)

خيريه عچرش (الكاتب المسؤول)

(أستاذة مشاركة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد چمران، أهواز، إيران)

echresh.kh@gmail.com

هايده عچرش (طالب ماجستير فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة أميرالمؤمنين، أهواز، إيران)

The Phenomenon of the Phonetic and Semantic Influence of the Saja'a in the Fatwa of Mrs. Zahra (p)

Khairia echresh (Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, Shahid Jamran University, Ahwaz, Iran)

Haideh echresh (Student, Master of Arabic Language and Literature at the University of Amir Al-Mo'menin, Ahwaz, Iran)

Abstract

Courage is one of the branches of verbal enhancements around the axis of the discussion of the science of rhetoric in the science of Budaiya and represents the phenomenon of the pleasures of expression phenomena in the language of literary texts. The Fatimid khutbah is one of the jewels of the cultural heritage of the Lady of Zahra, because it contains important doctrinal research, and it is characterized by the accuracy of the statement, the beauty of style, the clarity of words, the eloquence of speech and the splendor of the systems. No wonder of those who were raised in the arms of prophecy and imamate. Research through descriptive descriptive approach to the vocal manifestations of the wearer in the sermon,

One of the findings of the article is that Al-Sawa in Mrs. Zahra's sermon gathered all the elements of beauty, strength, and manifestation, and came in two pomegranates that are not expensive and do not abuse the rich and beautiful meanings. Mrs. Al-Sousa used a way to show the meaning to the recipient, not to seek her, and he did not mean for himself but for others.

Key words: Al-Sawa, study, Fatimid sermon, Fatima Al-Zahra.

الملخص

السجع هو أحد فروع من المحسنات اللفظية حول محور مناقشة علم البلاغة في علم البديع وتمثل ظاهرة السجع من ظواهر التعبير في لغة النصوص الأدبية. تعدّ الخطبة الفدكية واحدة من جواهر الإرث الحضاريّ للسيدة الزهراء،لما تضمّنته من مباحث عقيدية مهمّة، وما تميّزت به من دقّة البيان، وجمالية الاسلوب، وفصاحة الألفاظ، وبلاغة الخطاب، وروعة النظم، ولا غرابة في ذلك ممّن تربّت بين أحضان النبوّة والإمامة، اعتمد هذا البحث من خلال المنهج الوصفي التحليلي على المظاهر الصوتي للسجع في الخطبة الفدكية،

من النتائج التى توصلت إليها المقالة هي أن السجع في خطبة السيدة الزهراء استجمع جميع مقومات الجمال والقوة والبيان فجاء عفويان من غير تكلف ولا تعسف بمفرادت لطيفة زاخرة بالمعاني. وقد استعملت السيدة(ع) السجع وسيلة لابراز الدلالة للمتلقى لا غاية تنشدها فلم يقصد لذاته بل لغيره.

الكلمات الرئيسية: السجع، دراسة، الخطبة الفدكية، فاطمة الزهراء.

المقدمة

تُعتبر الخطبة الفدكيّة من أبرز محطّات تجلّيات علم السيدة فاطمة عليها السلام، من المعلوم أنّ السيدة الزهراء تكون عالمة على مستوى معرفة الله عزّ وجلّ والمعرفة التاريخيّة والمعرفة الاجتماعيّة والقراءة الدقيقة للواقع والمعرفة بأسرار العديد من العبادات والفرائض وعللها... وذلك لتكون حجّتها تامّة كاملة على القوم، هذا إضافة إلى الأسلوب الذي خرّجت به علمها ذاك، وهو على درجة من الفصاحة والبلاغة. ولتأكيد عظمة تلك الخطبة فهي لا تزال حيّة غضّة إلى يومنا هذا.

تطرّقت السيدة فاطمة عليها السلام في خطبتها إلى العديد من المواضيع الحساسة وذات الأهميّة منها الحمد والشكر لعظمة الله تعالى، والاعتراف بتوحيد الله سبحانه، والثناء عليه وذكر صفاته ونعمه ومننه جلّ وعلا ثم عرّجت على مقام النبوّة، وعظيم صفات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومنزلته في عالم الآخرة، وركّزت في نسبتها إليه صلى الله عليه وآله وسلم. وبيّنت جهاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وما عاناه وما وصل المسلمون من فضلٍ بسبب أبيها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وبيّنت كيف كانت حال العرب قبل بعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إليهم وبيّنت عظمة القرآن ودوره في الهداية لما استهدى به وبيّنت الحكمة من بعض العبادات والواجبات الشرعيّة وبعض فضائل أمير المؤمنين علي عليه السلام وفضحت المنافقين الذين أضمروا العداوة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبيّنت مسألة فدك أمام الجميع وعرضت أدلّتها وبيّنت حقّها في فدك، وفي صحّة وراثتها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والاحتجاج عليهم بكلام الله عزّ وجلّ. بما أن السجع بات عنصراً من عناصر فن القول الأدبي ولوناً من ألوان التعبير اللغوي، نسعى إلى دراسته دراسة وصفية تحليلة في هذه الخطبة.

خلفية البحث

لم يكتب حتى الآن دراسة حول خطبة السيدة الزهراء بصورة مستقلة، هناك دراسة واحدة تتناول في طياتها بعض ملامح هذه الخطبة، وهي رسالة «بازتاب هنرى تناسب لفظ ومعنا در خطبه هاى الغدير، فدكيه، قاصعه واشباح» لكاتبة فاطمة قلى بور والتى درست في الفصل الرابع بعض تجليات السجع في هذه الخطب ومنها

الخطبة الفدكية. فبناء على هذا، المقالة التى بين أيدينا هي جديدة من نوعها ولم يتطرق أحد إلى دراسة عنوان المقالة.

السجع لغة واصطلاحا

تسجل المعاجم العربية جملة من معانى السجع التى ترشدنا إلى أصل اشتقاقه، إ يشتد الشبه بينها وبين المعنى الاصلاحى للسجع. جاء في هذه المعاجم العربية «سَجَعَ يَسجَعُ: استوى واستقام، وأشبه بعضه بعضاً. [1] والسجع: الكلام المقفى، والجمع أسجاع وأساجيع. وسَجَّعَ تسجيعاً: تكلّم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن[2] وفي الجمهرة نجد: السجع: هو موالاة الكلام على روي واحد . وسجعت الحمامة إذا رددت صوتها على وجه واحد، وكذلك سجعت الناقة في حنينها، ومدّت حنينها على جهة واحدة.

اما السجع اصلاحا فهو أن تتواطأ فاصلتان في النثر على حرف واحد أي انتهاء الجملتين بكلمتين متشابهتين في أواخرهما[3] معناه هو: توافق الفاصلتين في الحرف الاخير من الكلام المنثور، وهو يعد في النثر كالقافية في الشعر[4]

يقول ابن سنان فيه « كما أن الشعر يحسن بتساوي قوافيه كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف في فصوله» ويقول في موضع آخر «فأما القوافي فإنها تجري مجرى السجع»[5]

ولقد اختلف العلماء من البلاغيين واللغويين والمفسرين وغيرهم في تسمية أواخر الآيات سجعاً أو فاصلة؛ فكلا المصطلحين مغرقان في القدم فعرفهما العلماء وتناولوهما في ثنايا مؤلفاتهم. فالبعض منهم مالَ الى تسمية هذه الظاهرة الأدبية «سجعا»[6] نظراً الى رواج تسميته عند العرب في مجاهل صحراء الجزيرة العربية. إذ كانوا يكشفون عن دفين ما كان فيها من نفثات الصدور، وشوارد الأفكار. فإنهم في تلك الحقبة البعيدة من الزمن كانوا: يعبرون عن خلجات أنفسهم بنثرهم في خطبهم ومواعظهم وحكمهم وأمثالهم[7] فامتدت هذه التسمية امتداداً واسعاً الى أن وصل الأمر الى العلماء، فاتخذها البعض منهم في العصور اللاحقة وأطلقوا تسمية السجع في بحوثهم القرآنية.

وأما البعض الآخر من العلماء، فقد آثروا استعمال مصطلح «الفاصلة» على مصطلح «السجع» استناداً الى الآية القرآنية «كتاب فُصِّلَت آياتُه»[8] وحاولوا الابتعاد عن استعمال «الأسجاع» لأسباب منها؛ أنهم كانوا يرون أن أصل السجع من «سجع الطيرُ» فيشرِّفون ويعظمون القرآن الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر[9]

ثم إنهم كانوا يعتقدون أن السجع حمل عبر تاريخه الطويل ظلالاً من المعاني وسمته هي التكلف والنفرة، فهذه السمة كانت سمة مميزة لحديث الكهان قبل الاسلام ولأجل تشريف القرآن الكريم عن مشاركة غيره من الكلام؛ كانوا يتجنبون عن استعماله[10]

شروط السجع

وتوافر شروط السجع في الكلام تكون ضرورية لمعرفة السجع نفسه إن كان قد طغى على ظاهر الكلام أم لا، ومن هذه الشروط:

هو الاعتدال في مقاطع الكلام. والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء والنفس تميلُ إليه بالطبع ويستسيغه السمع. ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، فلو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب سجاعاً[11]

أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة رنانة رقيقة عذبة، لا ركيكة ولا متكلفة، بعيدة عن الغثاثة والبرودة، فلا ينبغي للسامع أن يصرف همه الى الأسجاع والتطابق ويهمل الألفاظ وحلاوتها

أن تكون الألفاظ فيه تابعة للمعاني وليست المعاني تابعة لها[12] فإذا اتبع المعنى فيه اللفظ فإنه من السجع الممقوت والرديء، حيث لا يقع إلا في كلام ضعفاء المتكلمين

أن تكون كل فقرة من فقرات السجع دالة على معنى غير معنى الفقرة الأخرى [13] وإلا كان تكراراً، وترادفاً للمعنى، وتطويلاً يبعد السجع عن مواطن البلاغة، وعن الهدف الذي أريد منه.

فائدة السجع

إنّ الكلام الموزون ذا النغم الموسيقي يثير انتباهاً عجيباً وإعجاباً فائقاً لدى البشر، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما يسمع من مقاطع لتتكون منها جميعاً تلك السلسلة التي تتردد في أواخر الكتل الصوتية[14] يعد السجع جزء لا يتجزأ من فنية الإيقاع والموسيقى، فله في النفوس تأثير شديد وعلى الأسماع وقع ورنين. حيث يستخف القلوب ويستهوي الألباب ويحدث في السامعين نشوة وأريحية[15]

فالمحطات والكتل الصوتية التي يجمعها السجع تخلق في الكلام نوعاً من التوازن الموسيقي والتناسب الايقاعي اللذين يقويان الوحدة ويولدان اللذة والتمتع بالكلام، فهذه النغمات والإيقاعات التي يوجدها السجع تساعد في إيصال المفاهيم الى المتلقي، لأن النغمات هذه ترافق وتلائم المعاني عادة، حسب الدلالات الصوتية المتناسبة التي تحملها. إذن، فإن السجع يبهر بموسيقاه السمع، ويستولي على الوجدان بأنغامه، وألحانه، فهو السحر

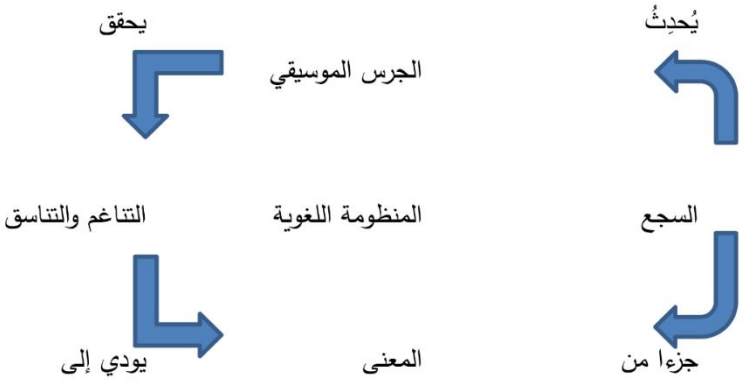

الحلال الذي جمع بين مزايا الشعر والنثر على السواء السجع يعكس الطلاقة الأدبية، فهذه الطلاقة هي التي تعكس تنوعاً عجيباً في إيقاع القرآن، وهذا التنوع يختلف في السور بالقياس إلى الأسجاع القصيرة والطويلة والمتوسطة، وبتنوعها في أحرف الروي، وهو أشبه باختلاف بحور الشعر في الديوان الواحد[16]

فالسجع من التنويعات اللغوية التى تتأتى على المستوى السطحى للصياغة ويتسم بكونه بنية بديعية إيقاعية يرتكز ايقاعها على التكرار الصوتى المنتظم إذ بعتمد تكرار الحرف الأخير من الفقرة في نهاية الفقرة التالية لها ويسمى الحرف الذى يتولد السجع من تكراره «رويا» كما تسمى الكلمة موطن الروى «فاصلة»[17]

كما أشرنا آنفا أن للسجع فائدتان؛ الأولى فائدة المتعة الجمالية والبيانية من التكرار الإيقاعي، والثانية فائدة كامنة في تثبيت المعنى في ذهن المتلقي وتقويته لما له من تأثير نفسي في الانشداد الذهني بما يثيره من متعة سمعية لدى المخاطب.

نتيجة للمهمة الإيقاعية التى يحدثها السجع نرى أنه قد تأتى الألفاظ المسجوعة بين حرفين متقاربين في المخرج لا متماثلين فقط كقول الزهراء مخاطبة: «مُذْقَةَ الشَّارِبِ، وَنُهْزَةَ الطَّامِعِ، وَقُبْسَةَ الْعِجْلانِ، وَمَوْطِىءَ الْأَقْدامِ»[18] و« وَنَكصْتُمْ بَعْدَ الْإِقْدامِ، وَاَشْرَكتُمْ بَعْدَ الْايمانِ»[19] فوقع السجع بين (نون وميم) في لفظتي «العجلان والأقدام» لتقارب مخرجيهما فالمعول عليه الإيقاع في الأذن والنفس بعض النظر عن طريقة رسم الحرف. والسجع لا يكون حسنا رائقا إلا إذا تطلبه السياق واقتضاه الحال من غير تكلف وتصنع فهو ذو أثر فعال في تصوير المعنى وإيصاله إلى المتلقي.

بما أن الجرس الموسيقيّ يعدّ جزءا من المعنى بتحقيقه التناغم والتناسق في المنظومة اللغوية[20] وبما أن السجع أحد أقطاب تكوين الجرس الموسيقي لذا يُعَدُّ السجع جزءا من المعنى بهذا المنظور كما هو واضح من الشكل التالي:

نتيجة لحسن السجع وجاليته ولما في الكلام المسجوع من روعة التنغيم وجمال الموسيقية شُبِّه بسجع الحمام[21]

وإن دراسة وتحليل المنظور الجمالي والإيقاعي والدلالي للسجع هو ما تكون عليه دراستنا لخطبة الزهراء دون الولوج إلى التفصيلات المملة لأنواعه التى أمتلأت بها كتب البلاغة وإن أشرنا إليها بصورة إجمالية لما فيه من بيان وتوضيح للمصطلح، فنقول:

لقد ظهرت تقسيمات مختلفة عن السجع وأطواره لدى العلماء، فاختلفوا فيه. فقسم فريق منهم السجع من حيث الروي والوزن، وبعضهم الآخر قسمه من حيث الطول والقصر للفقرة أو مقدار الفقرة. لكننا هنا سنشير إلى تلك التى وردت منها باعتبار الوزن والقافية[22] فالسجع من حيث توافر الوزن وعدمه، ومن حيث اجتماع الوزن مع عنصر آخر، أو انفراده، ينقسم إلى أربعة أقسام:

1- السجع المطرّف وهو أن تتفق الفاصلتان في حروف السجع (الروي) دون الوزن كقوله تعالى: « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا»[23]

2- السجع المتوازي هو اتفاق الفاصلتين (الجملتين) وزناً وتقفية، إذ تتفق اللفظة الأخيرة من الفقرة مع نظيرتها في الوزن والروي واشترط بعض العلماء ألاّ يقابل ما في الفقرة الأولى لما في الثانية في الوزن والتقفية[24] كقوله تعالى و« فيها سرر مرفوعةٌ وأكواب موضُوعةٌ»[25] وهذا إلى جانب النوع الأول هو الأكثر ورودا في خطبة السيدة الزهراء كما سنرى

3- السجع المرّصع هو ما تتفق فيه ألفاظ الجملتين وزناً وتقفية ويكون ما في الأولى مقابلاً لما في الثانية نحو: نحو: « إنّ الأبرار لَفي نعيم، وإنَّ الفجار لفي جحيم»[26]

4- السجع المتوازن هو أن تتفق الجملتان في الوزن دون التقفية[27] نحو: «ونَمارقُ مصفوفةٌ وز رابي مبثوثةٌ» [28]

فهذه هي أهم أنواع السجع التى ذكرها البلاغيون وسنشير في سياق التطبيق إلى جماليته ومزايا كل نوع في خطبة السيدة فاطمة(ع). قبل أن ندرس السجع وتأثيره الأيقاعى فژ خطبة نأتى بجدول تواتر ونسبة أنواع السجع فيها:

	التواتر	النسبة
المتوازى	62	%58
المطرف	22	%21
المرصع	14	%13
المتوازن	9	%8
لمجموع	107	%100

جدول الرقم 1

كما نلحظ في الجدول أن نسبة ورود السجع المتوازي (58%) كثيرة جدا ثم يأتى السجع المطرف (21%) في الرتبة الثاني والسجع المرصع (13%) والمتوازن (8%) على الترتيب في المراتب الثالثة والرابعة.

مظاهر التأثير الصوتي والدلالي للسجع في الخطبة

بالسجع يتحقق للخطبة ضبط إيقاعي له تأثيره على السامعين، فالنفس تطرب لوقع الموسيقى وتنجذب اليه، السيدة الزهراء يلقى كلماتها لتحيى هذه الكلمات في وجدان السامعين وتعمل بمقتضاها جوارحهم. تقول السيدة الزهراء(ع)

« وَاَشْهَدُ اَنْ لا اِلهَ اِلاَّ الله وَحْدَهُ لا شَريك لَهُ، كلِمَةٌ جَعَلَ الْاِخْلاصَ تَأْويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَاَنارَ فِي التَّفَكرِ مَعْقُولَها، الْمُمْتَنِعُ عَنِ الْاَبْصارِ رُؤْيَتُهُ، وَمِنَ الْاَلْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الْاَوْهامِ كيْفِيتُهُ ... اِبْتَعَثَهُ الله اِتْماماً لِاَمْرِهِ، وَعَزيمَةً عَلى اِمْضاءِ حُكمِهِ، وَاِنْفاذاً لِمَقاديرِ رَحْمَتِهِ، فَرَأَى الْاُمَمَ فِرَقاً فِي اَدْيانِها، عُكفاً عَلى نيرانِها، عابِدَةً لِاَوْثانِها، مُنْكرَةً لِلَّهِ مَعَ عِرْفانِها»[29]

نلحظ في هذه القطعة الفنية ثنائية التراكيب المسجوعة ذات صبغة إيقاعية تجذب أذهان المتلقين والقراء وتشدُّ نفوسهم فلم يعتمد على السجع الموحد بل تنوعت السجعات وبالتالي تنوع الإيقاع وذلك لإحداث الأثر الجمالي من حانب ولإيصال مقصود المتلقي بأروع صورة بأحداث نوع من التأثير في نفوس المتلقين من جانب آخر.

لقد جاء السجع المتوازي هنا في «ولها» في لفظتى «مَوْصُولَها ومَعْقُولَها» و«انها» في ألفاظ «اَدْيانِها ونيرانِها ولِاَوْثانِها وعِرْفانِها» إذ منح الخطبة بعدا تصويريا فاعلا وبعدا موسيقيا وصدى صوتيا مترنما لوجود «ولها» وخاصة «انها». عضّد هذا الإيقاع المد الموجود في «ولها» و«انها» مما منح النص بعدا دلاليا تمثل في عظمة الله الذي بعيد جدا عن الأبصار كما تمثل في بُعد العابدين لغير الله عن الحقيقة والله والمنكرين له.

يظهر في كل هذه العبارت الثلاثة جمالية السجع المرصع «وَلا اَقُولُ ما اَقُولُ غَلَطاً، وَلا اَفْعَلُ ما اَفْعَلُ شَطَطاً»[30] و«اُمُورُهُ ظاهِرَةٌ، وَاَحْكامُهُ زاهِرَةٌ، وَاَعْلامُهُ باهِرَةٌ» و« وَزَواجِرُهُ لائِحَةٌ، وَاَوامِرُهُ واضِحَةٌ»[31]. إذ اظهرت براعة الخطيبة في اختيار الألفاظ وتنسيقها فنيا ودلاليا في اجتذاب أذهان المتلقين عبر ما نلمحه في 1- التوازن في الوحدات اللغويات فكأن الوحدات الثانية والثالثة تكرار إيقاعى للوحدة الأولى إذ أن السجع «يؤدى إلى التناشق اللفظي في الكلام»[32] ؛ 2- جمالية الاستعارة في ضمير هى المستتر في «اُمُورُهُ ظاهِرَةٌ، وَاَحْكامُهُ زاهِرَةٌ، وَاَعْلامُهُ باهِرَةٌ ووَزَواجِرُهُ لائِحَةٌ، وَاَوامِرُهُ واضِحَةٌ»؛ ألفاظ ظاهِرَةٌ وزاهِرَةٌ وباهِرَةٌ ولائِحَةٌ وواضِحَةٌ، من الصفات التى إما تأتي للأمور المحسوسة وأما تأتي الكائن الحي لكنها هنا جاء لامور غير محسوس أو للكائن غير الحي.

وأحيانا نحد في خطبة فاطمة (ع) السجع المرصع اللطيف في خفته وإيقاعه، ففي خطابها لأمير المؤمنين على بن أبى طالب توظف الموسيقى في ألفاظها فتأتى فقراتها المتفقة في الوزن والقافية في غاية الدقة من حيث المعنى بقولها: «اِشْتَمَلْتَ شِمْلَةَ الْجَنينِ، وَقَعَدْتَ حُجْرَةَ الظَّنينِ، نَقَضْتَ قادِمَةَ الْاَجْدَلِ، فَخانَك ريشُ الْاَعْزَلِ... فَلا دافِعَ وَلا مانِعَ، خَرَجْتُ كاظِمَةً، وَعُدْتُ راغِمَةً، نَقَضْتَ قادِمَةَ الْاَجْدَلِ، فَخانَك ريشُ الْاَعْزَلِ... اَضْرَعْتَ خَدَّك يَوْمَ اَضَعْتَ حَدَّك، اِفْتَرَسْتَ الذِّئابَ وَافْتَرَشت التُّرابَ، ما كَفَفْتَ قائِلاً وَلا اَغْنَيْتَ باطلاً»[33] هذا سجع مرصع فالألفاظ اتفقت في الوزن والقافية وبذلك شكل السجع هنا موسيقى من خلال التناغم الحاصل بين أصوات وكلمات وعبارات هذه الفقرة. نجد هنا السجع مرصعا في بدئه ثم ينقطع بعبارة « نَقَضْتَ قادِمَةَ الْاَجْدَلِ، فَخانَك ريشُ الْاَعْزَلِ» لغاية فنية بلاغية ثم يتواصل في فقراته بالوزن والتقفية وهو موافق في تناغمه الموسيقي على الرغم من انقطاعه مما زاد في تآلف عبارت الخطبة وتناسقها بوحدة موضوعية لها أثرها في النفس.

وعملت الفقرات ذات السجع المختوم في النص على التنويع في السلم الموسيقي، الذى من شأنه دفع الرتابة عن الخطبة وجذب الأذهان قبل شرودها ومما زاد الخبطة حسنا هو وقوع السجع في فصول قصيرة متساوية في عدد كلماتها وهذ الشكل «أشرف السجع منطلة للاعتدال الذى فيه»[34] وهذه الميزة تجعل من الخطبة أسرع حفظا وأسرع تداولا وأسهل على اللسان وأجرى في الكلام وكلها مزايا أسلوبية للسجع أحسنت استثمارها السيدة الزهراء.

كذلك نجد السجع المتوازى في عبارة «ثُمَّ قَبَضَهُ الله اِلَيْهِ قَبْضَ رَأْفَةٍ وَاِخْتِيارٍ، وَرَغْبَةٍ وَايثارٍ، فَمُحَمَّدٌ صَلَّى الله عَلَيْهِ والِهِ مِنْ تَعَبِ هذِهِ الدَّارِ فِي راحَةٍ، قَدْ حُفَّ بِالْمَلائِكةِ الْاَبْرارِ وَرِضْوانِ الرَّبِّ الْغَفَّارِ، وَمُجاوَرَةِ الْمَلِك الْجَبَّارِ»[35] في حرف الراء وهو صوت مجهور شديد متكرر يشد الأسماع ويجذب القلوب بأيقاعه ويثير انتباه القارئ للقبض المكرر لله في رأفة ورحمة وأيثار والمحفوف المكرر بالملائكة وغفران الدائم لله ومجاوررة الملك الجبار فضلا عن تهيئة السيدة (ع) لهذا المدلول صورة تشبيهية تاركة تأمُّلَها للمتلقي ليعيش الخيال الرحب إذ تفعل التشبيه في النفس ما لا تفعله الحقيقة.

يظهر كذلك السجع المرصع في قولها «وَناطَحْتُمُ الْاُمَمَ، وَكافَحْتُمُ الْبُهَمَ»[36] وقولها «وَخَضَعَتْ نُعْرَةُ الشِّرْك، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الْاِفْك»[37] وقولها «اِفْتَرَسْتَ الذِّئابَ وَافْتَرَشت التُّرابَ»[38] وقولها «شَكَوايَ اِلى اَبي وَعَدْوايَ اِلى رَبّى».[39] إذ منحت الألفاظ المسجوعة قيمة عالية للنص وجمالية أخاذة. لأن «السجع يكسب الكلام رونقا وجمالا وإيقاعا»[40] أحال إلى الدلالة المركزية للنص من خلال:

1- التوازن الإيقاعى والترديد التغمي بين المفردات (ناطَحْتُمُ – كافَحْتُمُ) و(الْاُمَمَ والْبُهَمَ) و(خَضَعَتْ وسَكَنَتْ) و(نُعْرَةُ وفَوْرَةُ) و(الشِّرْك والْاِفْك) و(اِفْتَرَسْتَ وافْتَرَشت) و(الذِّئابَ والتُّرابَ) و(شَكَوايَ وعَدْوايَ) و(اَبي

ورَبّى) التى حققت تعادلا صوتيا بارزا بين المفردات كل وحدة لغوية وهو في الأساس تعادلى دلالي إذ أن أصوات السجعات تختزل دلالة كل وحدة لغوية.

ففي كلمتي (ناطَحْتُمُ – كافَحْتُمُ) نسبة استعمال الحروف المجهورة يناسب مع المعنى تناسبا تاما لأن المعنى يدل على النزاع والقتال والمكافحة وهذا شيء لا يمكن اختفاءه وكذلك كلمات (نُعْرَةُ وفَوْرَةُ) و(شَكوايَ وعَدْوايَ) والتى جاءت على نوع من التناسب بين الصوت والمعنى.

2- التبادل الصوتي بين مفردات الوحدات اللغويين(وَناطَحْتُمُ الْأُمَمَ – وَكافَحْتُمُ الْبُهَمَ) وقولها (وَخَضَعَتْ نُعْرَةُ الشِّرْك – وَسَكنَتْ فَوْرَةُ الْإِفْك) وقولها (اِفْتَرَسْتَ الذِّئابَ – وَافْتَرَشت التُّرابَ) وقولها (شَكوايَ اِلى اَبي – وَعَدْوايَ اِلى رَبّى) مم حقق تناغما موسيقيا وتوافقا إيقاعيا وترابطا صوتيا بين الوحدات يستحيل انفكاكه فصلا عن الترابط الدلالي بينها.

3- الترابط الدلالي والتماسك النصي بين فقرات النص جميعا فضلا عن النمو العضوى المتدرج في رسم صورة مكافحة الأنصار مع الأعداء الإسلام ثم خضوع نعرات الشرك وسكون فوران الأفك والبهتان وهذه هى حالة الأنصار في زمن النبى(ص)

4- قرب الفواصل في هذه النصوص يدل على جمالية السجع وحسنه إذ «كلمات قلت الألفاظ المسجوع كان أحلى موقها لدى المتلقى لقربها من السمع»[41] كما يدل على قوة الخطيبة البيانية وتمكنها من فنها، لأن «السجع القصير صعب المراس وعر المذهب بعيد المتناول عزير الاتفاق» [42] ومن جانب أخر يدل على حالة الغضب الشديد للسيدة الزهراء من قِبَل تصرفات الأنصار معها في قضية الفدك نتيجة للإيقاع السجعي المتلاحق.

لقد وظفت السيدة فاطمة الزهراء الألفاظ المسجوعة في خطبتها للدلالة على المعنى بنسق إيقاعي يجتذب إذهان السماعيل ويستميل قلوبهم ويحرك مشاعرهم على نحو ما نراه في الخطبة وهي تعنّف الأنصار لموقفهم المتخاذل تجاه ما أرادت. تقول السيدة مستعملة السجع المطرف تارة والسجع المتوازن تارة أخرى: « فَاَنَّى حِزْتُمْ بَعْدَ الْبَيانِ، وَاَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الْإِعْلانِ، وَنَكصْتُمْ بَعْدَ الْإِقْدامِ، وَاَشْرَكتُمْ بَعْدَ الْايمانِ؟»[43] لقد خلقت الألفاظ المسجوعة جوا تنغيميا أسهم في خلق تفاعل لدى المتلقي وجعله يتفاعل والقيمة الدلالية للنص.

فالسجع الإيقاعي ورد في الألفاظ (الْبَيانِ والْإِعْلانِ) و(الْإِقْدامِ والْايمانِ) وكلها تنتهى بصوت الغنة الذى يمثله صوتا (النون والميم) وكلاهما يتميزان بالوضوح السمعي لدى المتلقي على أن صوت النون أعلى من صون الميم وضوحا ولذا وردت النون فاصلة في أكثر من نصف فواصل القرآن الكريم بنسبة كبيرة جدا وذلك لما فيه من الغنة اللطيفة في السمع.

إن صون النون قد حقق بتطريبه وتنغيمه إيقاعا واضحا إذ الموقف يتطلب توضيح وتجلية وبيام ما هو عليه من حلالة الانقلاب وهذا ما يتكفل به صوتا النون والميم فضلا عن ذلك فقد أبانت الزهراء(ع) لهذا المفهوم

بعدة أمور: 1- حالة الاستغراب والتعجب بأسلوب الأسفتهام الإنكارى (أنَّى) وجعل المتلقي يعيش حالة التأمل في موقفه ومراجعة الذات والعودة إلى الفطرة السليمة النقية 2- بيان وافعهم المتخاذل وتقهقرهم إلى الجاهلية المتقية باستعمال أفعال مختلفة مستوية؛ 3- الدلالة إلى حد كبير وهي «حِزْتُمْ واَسْرَرْتُمْ ونَكصْتُمْ واَشْرَكتُمْ» تنتهي بسجعة الميم ذات صدى سمعي عالٍ.

و تظهر جمالية استعمال السجع المطرَّف في خطبة السيدة الزهراء (ع) فة نهايات الفواصل المسجوعة نتيجة لاختلاف أوزان كل منها، كقولها (ع) في بعثة الرسول الأعظم (ص) وجهوده في ضرب قواعد الشرك والنفاق « فَبَلَّغَ الرِّسالَةَ صادِعاً بِالنَّذارَةِ، مائِلاً عَنْ مَدْرَجَةِ الْمُشْرِكينَ، ضارِباً ثَبَجَهُمْ، اخِذاً بِاَكظامِهِمْ، داعِياً اِلى سَبيلِ رَبِّهِ بِالْحِكمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، يَجُفُّ الْاَصْنامَ وَيَنْكثُ الْهامَّ، حَتَّى انْهَزَمَ الْجَمْعُ وَلَّوَا الدُّبُرَ»[44] تبدو دقة اختيار الألفاظ المسجوعة ووضعها في السياق الذي هى فيه وتوظيفها فنيا وإسقاعيا في بلورة الدلالة يستهوي الأسماع وتميل إليه القلوب، فضلا عن التنوع الإيقاعي في كل وحدة لغوية على نحو ما نجده في:

ضارِباً ثَبَجَهُمْ ⟷ اخِذاً بِاَكظامِهِمْ

يَجُفُّ الْاَصْنامَ ⟷ يَنْكثُ الْهامَّ

لقد تجاوز اسما الفاعل (صاربا وآخذا) العنصر الإيقاعي إلى منح الخطبة البعد التصويري الفاعل في الإيحاء إلى الدلالة المركزية للنص فضلا عن النمو والتطور المتسلسل في رسم صورة مجاهدة الرسول الأكرم(ص) للمشركين وبعد أن ضرب الرسول رؤساءهم وعظماءهم توجه إلى خنق أباطيلهم وحبسها والقضاء عليها نهائيا.

لقد وظف الزهراء (ع) الأصوات الشديدة والمجهورة مثل (ب، ج، ذ، ض و...) في إبراز هذه المعنى وتقويته. ثم تتطور الصورة أكثر لتتمثل في إنزال الرسول (ص) لهام المشركين وإلقائها على الأرض وهو كناية عن قتل رؤساء المشركين وإذلالهم. في حين وفرت سجعة (الميم) في الألفاظ المسجوعة الأربعة قيمة نغمية موسيقية بصداها العالي فضلا عن وجود (حرف مد الألف) في لفظتى (الأصنام والهام) الذي أكسب الرنين والتنغيم طولا وبعدا وهذا يتناسب مع أسلوب العرب فإنهم «إذا ترنوا يلحقون الألف والياء والواو ما ينوَّن وما لا ينوّن لأنهم ارادوا مد الصوت....» [45]

فاستعمال الزهراء(ع) لهذا التركيب من هذه الظاهرة لم يقصد لذاته بل لغيره وهذا هو شأن حسن إيراد السجع في خطبة بالعموم لإضافة وإبراز الدلالة إلى القارئ والمتلقي لا أن تكون هي الدلالة كما هو واضح.

وكان استمعال السجع المطرف إلى جانب السجع المتوازي، العلامة البارزة في خطب السيدة الزهراء(ع)، منها قولها « مِنْ عُمُومِ نِعَمٍ اِبْتَدَاَها، وَسُبُوغِ الاءٍ اَسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ اَوْلاها, جَمَّ عَنِ الْاِحْصاءِ عَدَدُها، وَنَأى عَنِ

الْجَزاءِ اَمَدُها، وَتَفاوَتَ عَنِ الْإِدْراك اَبَدُها »[46] فالسجع في هذه الصورة متنوع الحروف دالا على تنوع النعم الإلهية وأضفى على الخطبة جمالا فنيا بما لذلك السجع من موسيقى وأنتجت تأثيرا واضحا في نفس المتلقي مستعملا في نهاية كل مقطع الدال ولهجته الإيقاعية العالية والجهرية الشديدة لترسم صورة النعمات المتعددة التي خلقها الله وأعطاها والتى لا نستطيع أن نحصيها.

تقول السيدة الزهراء في مكان آخر مستعملا الشجع المطرف: « اِلاَّ تَثْبيتاً لِحِكمَتِهِ وَتَنْبيهاً عَلى طاعَتِهِ، وَاِظْهاراً لِقُدْرَتِهِ وَتَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ، وَاِعْزازاً لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّوابَ عَلى طاعَتِهِ، وَوَضَعَ الْعِقابَ عَلى مَعْصِيَتِهِ»[47] قد جاء السجع في «حِكمَتِهِ – طاعَتِهِ – بَرِيَّتِهِ – دَعْوَتِهِ – مَعْصِيَتِهِ» على اساس التوازن في الكلام إذ جاءت أصوات هذه الكلمات بين الجهر والهمس وبين الشدة والرخاوة وهذا يعد من أجود أنواع السجع في الاعتدال الذى فيه.

من ثم نرى أن الصياغة في الخطبة عبارة عن سبيكة متلاحة العناصر فالطوت الموحد في نهاية الفواصل وماقبلها عامل ربط ظاهر يشغل وجدان المتلقى بصعة دائمة بمنطقها الرنين الصوتي كما يشغل عقله من حيث انه يحدد البداية الدلالية ونهايتها بما يتيح للقارئ الذى يدرك هذا النظام أن ينتبه بعد كل تغيير في السجع إلى آن هناك حركة ذهنية جديدة عليه متابعته.

النتائج

بعد دراسة أسلوب السجع توصلنا إلى النتائج التالية:

إن السجع في خطبة السيدة الزهراء استجمع جميع مقومات الجمال والقوة والبيان فجاء عفويان من غير تكلف ولا تعسف بمفرادت لطيفة زاخرة بالمعاني. وقد استعملت السيدة(ع) السجع وسيلة لابراز الدلالة للمتلقى لا غاية تنشدها فلم يقصد لذاته بل لغيره.

تحقق السيدة الزهراء نجاحا صوتيا إذ وائمت بين النمط الصوتي لحروف الخطبة ونظام مقاطعها مع طبيعة موضوعها وإنها توظف السجع فنيا وإيقاعيا في بلورة المعنى المراد بشكل يستهوي الأسماع وتميل إليه القلوب.

تنوّع الفواصل المسجوعة في وحدة لغوية الذي أدّى إلى تنوع الإيقاع مما رسم قطعة موسيقية نغمية تثير مشاعر المتلقين وجعلهم يتفاعلون والقيمة الدلالية للنص.

---

[1]. ابن سيدة، د.ت: مادة سجع
[2]. ابن منظور، 2004م: مادة سجع
[3]. أبو حاقة، 1996م: 196

[4]. الزوبعي، 1996، 152
[5]. الخفاجي، 1953، 164 - 171
[6]. عبود،، 1992م: 125
[7]. طهراني، 1380: 31
[8]. فصلت/ 3
[9]. الزركشي، 1990م: 150
[10]. أحمد نحلة، 1989، 175 و176
[11]. عباس، 1998م: 306
[12]. نفس المرجع، 1998م: 303
[13]. سلامه، 1987م: 506
[14]. الحسناوي، 1986: 176
[15]. الخفاجي، 1973م: 124
[16]. قطب، 1956م: 90 و91
[17]. عبدالغفار، 2001م: 92
[18]. الاحتجاج،1424هـ، 1/ 261
[19]. نفس المرجع، 1/ 261
[20]. حسن الشيخ، 1999م: 3
[21]. الحسيني، 1432، 190
[22]. ابن معصوم المدني، 1969م: 6/ 250
[23]. نوح/ 13 و14
[24]. السيوطي، 1370: 2/ 104
[25]. الغاشية/ 13 و14
[26]. الانفطار/ 13 و14
[27]. السيوطي، 1370، 2/ 104
[28]. الغاشية/ 15 و16
[29]. الاحتجاج، 1424هـ، 1/ 262
[30]. نفس المرجع، 262/1
[31]. نفس المرجع، 1/ 262
[32]. اسكندر المنصورى، 1995، 40
[33]. الاحتجاج، 1424هـ ، 1/ 261
[34]. ابن الأثير، 1939، 1/ 234
[35]. الاحتجاج،1424هـ، 1/ 261
[36]. نفس المرجع، 1/ 262
[37]. نفس المرجع، 1/ 262
[38]. نفس المرجع، 1/ 262
[39]. نفس المرجع، 1/ 262
[40]. اسكندر المنصورى، 1995، 41
[41]. ابن الأثير، 1939، 1/ 257
[42]. لاشين، 1999م: 131
[43]. الاحتجاج، 1424هـ، 1/ 262
[44]. نفس المرجع، 1/ 262
[45]. سيبويه، 2004: 4/ 434
[46]. الاحتجاج، 1424هـ، 1/ 262
[47]. نفس المرجع، 1/ 262

فهرست منابع

1- القرآن
2- ابن الأثير، ابوالفتح ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1939م.
3- ابن سيدة، على بن اسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، تحقيق مصطفى السقا وحسين نصار، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، دون تاريخ،
4- ابن معصوم المدني، السيد على صدر الدين، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق شاكر هادى شكر، النجف الأشرف، مطبعة النعمان، 1969م.
5- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت دار صادر، 2004م.
6- أبو حاقة، أحمد، البلاغة والتحليل الأدبى، بيروت، دار العلم للملايين، 1996م
7- أحمد نحلة، محمود، دراسات قرآنية في جزء عمّ، بيروت دار العلوم العربية، 1989م.
8- اسكندر المنصورى، عبدالواحد زيارة، الإيقاع وأنماطه ودلالاته في القرآن الكريم، رسالة الماجستير، جامعة البصرة، 1995.
9- الجوزية،ابن قيم، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، مصر، مطبعة السادة، 1327
10- الحسناوي، محمد، الفاصلة في القرآن، بيروت، المكتب الإسلامي، عمان، دار عمان، 1986م

11- حسن الشيخ، عبدالواحد، البديع والتوازي، مصر، مطبعة الإشعاع، 1999م.
12- الحسينى، السيد جعفر السيد باقر، أساليب البديع في القرآن، طهران، بوستان كتاب، 1432
13- الخفاجي، ابن سنان، سر الفصاحة، تحقيق عبدالمتعال الصعيدي، مصر، مكتبة محمد صبيح، 1953.
14- الخفاجي، عبدالمنعم، الشعر الجاهلي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1973
15- الزركشي، محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق يوسف عبدالرحمن المرعشلى، بيروت، دار المعرفة، 1990.
16- الزوبعي، طالب محمد، البيات والبديع، ناصر حلاوي، بيروت، دار النهضة العربية، 1996م.
17- سلامه، شرف الدين حسين بن محمد الطيبي، التبيان في علوم المعاني والبيان والبديع، تحقيق هادى عطية مطر الهلالي، لبنان، مكتبة النهضة العربية، 1987م
18- سيبويه، ابو بشر عمرو بم عثمان، الكتاب،القاهرة، مكتبة الخانجى، 2004م.
19- السيوطي، حلال الدين، الاتقان في علوم القرآن، مصر، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، 1370
20- الطبرسى، ابو منصور أحمد على بن ابى طالب، من أعلام القرن السادس الهجري، تحقيق الشيخ ابراهيم البهادرى والشيخ محمد هادى، قم المقدسة، دار الأسوة للطباعة والنشر، 1424هـ.
21- طهراني، نادر نظام، «اللغة العربية وظاهرة السجع في الجاهلية والإسلام»، مجله دانشكده ادبيات وعلوم انسانى دانشگاه تربيت معلم، سال 7، شماره 33، طهران، 1380.
22- عباس، فضل حسن، البلاغة وفنونها وأفنانها، عمان، دار الفرقان. 1998م
23- عبدالغفار، هدى عطية، السجع القرآنى دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، 2001م
24- عبود، شلتاغ، الإعجار القرآني أسلوبا ومضمونا، بيروت: دار العلم، 1992م
25- البلاغة العربية
26- قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، مصر، دار المعارف، 1956م.
27- لاشين، عبدالفتاح، البديع في ضوء أساليب القرآن، القاهرة، دار الفكر العربي، 1999م.